

شهرات

شهرية العلم

وسائل التغلب على الألم

مزايها وأخطارها

أو تحرقها بالنار حيناً آخر لما وجف أو صرخ متألماً . وفي الحالات الجراحية التي تجري تحت تأثير البنج الموضعي يلاحظ الجراح ومن حوله أنه متى تعرضت الأحشاء أمكن العبث بها أو الضغط عليها والمريض لا يكاد يشعر بما يجري فيه . ويقص السبر ولیم هارفي أسطورة لا تخلو من طرافة ، وهي أن الابن الأكبر للورد موتسجورمى ولد وفيه تشوه خلقى جعل قلبه بادياً للعين إلا من الجلد الرقيق حتى أمكن لمسه بالأصبع . غلبوه إلى الملك شارل ليشاهد تلك الحالة الشاذة ، وأمكنه أن يتأكد بنفسه أن القلب لا يشعر إذا أمسكناه أو ضغطناه بأصبعنا . ولقد أوحى كل هذه الظواهر إلى العلامة هنرى هيد بفكرة الألم الانعكاسى . أى إن أعصاب الحساسية لكل عضو داخلى تنتهى فى مكان معين من النخاع الشوكى تتقابل فيه مع أعصاب الحساسية لجزء معين من الجلد . فإذا تألم القلب مثلاً انعكس ألمه إلى الكتف الأيسر أو الذراع الأيسر ، وينعكس ألم حويصلة المرارة إلى الكتف الأيمن أو الظهر أو منطقة المعدة . والرئة مثلاً لا تحس بالألم ولكن متى امتد الالتهاب إلى غشائها شعر المريض بألم حاد قد ينعكس إلى البطن ، فيظن الطبيب أن موطن الداء فى المرارة أو المصران

ما أقسى سكون الليل وأشد حلكته . وما أبدع استرخاء النوم وألد غفلته ، وما أفظع وطأة الألم وأشد بأسه ، فالناس لديه سواء لا يرحم العدو ولا الصديق .

على أن الألم رغم شدة وطأته على الجسم والنفس ، يجب اعتباره من الحواس الضرورية كالسمع واللمس وباقي الحواس الخمس ؛ إذ أن له مزايا وقائية جمة . فلولا تركنا الجرة المحترقة تنال من أجسامنا ما شاءت ، ولما ابتعدنا عن مواطن الأذى والخطر حيثما كانت ، ولما فطنا إلى موضع الخلل من الآلة البشرية التي تعمل دون انقطاع أعواماً ، فتسرى نعومة حيناً أو يختل ميزانها أياماً . والألم هو سبيلنا الوحيد لتعرف موضع الداء ، فنكافئه بما يناسبه من دواء . فهو نعمة ونعمة ، وخنجر مغمود ودرع واق . وسبحان الذى يعطى ويأخذ ، ويذل ويرحم وهو على كل شيء قدير .

كم سمعنا عن قلب يتلظى أو كبده تحترق ، فظننا أن أعضاءنا الداخلية كالقلب والكبد والرئة والكليتين والمعدة والأمعاء حساسة مرهفة يؤلمها الوخز الرقيق الدقيق ، ولكن الواقع أنها لا تحس ولا تشعر بالألم ؛ فانك إذا فتحت بطن حيوان ما ثم عبثت بأحشائه تضغط عليها حيناً وقطعها بمجد السلاح

ويسلمه إلى سلطان النوم الهنيء ، وبإلهام من نعمة كبرى .

أنت تسمع مثلاً عن استعمال لبخة بذر الكتان أو الاتفلوجستين أو قربة الماء الساخن لتخفيف الآلام السطحية الموضعية . فهل خطر لك أن تسأل عن سر مفعولها في سبيل تخفيف آلامك ؟ ولا بد أنك في يوم ما لجأت إلى أحد أدوية الروماتزم تلك بها كتفك أو ذراعك أو ظهرك أو ساقك فلا تلبث أن تشعر بدفء موضعي عجيب يصحبه ذوبان الشعور بالآلم المضني . لماذا نلجأ إلى هذه الطرق البدائية في سبيل الخلاص من قيود الآلام والأوجاع ؟ ألم أقل لك منذ سطور قلائل إن الشعور بالآلم يبدأ في محطة الارسال سطحية كانت أو داخلية ومنها يسرى في أعصابه بمثابة الأسلاك الكهربائية ليصل بواسطتها إلى المركز الرئيسي الذي يفسر الآلم على حقيقته . فإذا انت حاول إنشاء محطة أخرى في منطقة مجاورة بحيث تغطي أمواجها على رسالة المحطة الأصلية أي موضع الآلم ، أمكنك أن ترغمها على الانزواء والاختفاء ولو مؤقتاً ، فبنسب المخ الآلم الأصلي ويتفرغ للدعاب الجديد يحاول تفسير كنهه ومدى أغراضه من تدخل غير متوقع في ظرف دقيق كهذا . وقد تطول فترة المداعبة أو تقصر حسب قوة المحطة الإضافية ودرجة انتشار أمواجها في الأفق الضيق .

على نفس هذه المحطة الخارجية يسرى مفعول بعض المخدرات الموضعية كالسكوكاين مثلاً . فانت إذا حقنت هذه المادة تحت الجلد في أي موضع من سطح الجسم ، أمكنك أن تعمل فيه بالسلاح والبضع دون أن يشعر المريض بأي غضاضة أو نفور . وإذا حقنتها تحت ضرس أمكنك خلعه على حين يراقبك المريض في بساطة وسكون . وما هذا إلا نتيجة لشلل مؤقت في

الأعور . وبالعكس من هذا ، إذا امتد التهاب الكبد أو للراة إلى الحجاب الحاجز سبب أعراضاً تشبه الالتهاب الرئوي . ولعل جالينوس كان أول من وصف هذه الظاهرة في عام ١٦٠ قبل الميلاد . فقد فصل في مذكراته عنها وبلغ من دقة الوصف أن قال : « إذا امتد مرض الكبد إلى الحجاب الحاجز نتج عن هذا سرعة في التنفس وألم موضعي وسعال شديد لا يصحبه بصاق ... »

ولا بد أن يمر الشعور بالآلم بمراحل عديدة قبل أن يتجمع على وجهه الصحيح . فحطة الاستقبال الأولى سواء كانت على سطح الجسم أو داخله — ترسل إشارتها إلى النخاع الشوكي ومنه إلى مكان في قاع المخ يدعى المهاد thalamus ومهمته التفرقة بين درجات الحرارة والآلم بشكل تقريبي . ومن هناك تستمر الإشارة في طريقها إلى المحطة الرئيسية العليا في سطح المخ ، فتحلل تحليلاً دقيقاً ، ويشعر بمكان الآلم وطبيعته ودرجته من الشدة ، فيثير في الانسان الجزع والقلق والضيق وغير ذلك من مظاهر الآلم التي يعهد ماكل من اكتوى بنساره .

من هذا ندرك أن شعور الآلم يجب أن يمر في المراحل الآتية : محطة إرسال سطحية أو داخلية ، ومنها يسرى في الأعصاب والنخاع الشوكي حتى يصل إلى مركز الرئاسة وهو المخ حيث تسلمه محطتان إحداهما إضافية غير دقيقة ، والأخرى رئيسية وهي بمثابة الأخت الكبرى للكلمة النضوج التي تدرك ماخفي من الأمور . فإذا تحدثنا عن دواء مسكن أو منوم أو مخدر قصدنا بهذا عنصراً كيميائياً ينزل على أحد هذه المحطات أو كليهما فيشل من حيويها بشكل مؤقت ويريح الجسم من عناء الآلم أو الأرق المذل المرهق

الجسمي، فيصحو الشخص من النوم خاملاً كسولا لا يقبل على عمل اليوم بالنشاط المجهود بعد أن نام ملء جفونه ساعات طويلاً . كما يجب أن تتجنب الأدوية التي تؤثر في القلب والدورة الدموية أو التي تؤدي إلى عادة الإدمان كالمورفين مثلاً .

إذا استعرضنا الأدوية الشائعة واحداً بعد الآخر وبدأنا بأكثرها شيوعاً وهي مهبطات الحرارة العادية التي لا تكاد تخلو منها صيدلية أى منزل ، وأعنى هذه الشرذمة مركبات الأسبرين والفيناستين والبيراميدون وجدنا نحن الأطباء أنفسنا مضطرين إلى إرسال كلمة تحذير لا بد منها في سبيل السلامة العامة . فما لا شك فيه أن لهذه المركبات فوائد عظيمة في علاج الصداع وآلام المفاصل ورومازم العضلات وآلم الأسنان ، فهي بجانب مفعولها كمهبط للحرارة نتيجة تأثيرها في مركز الحرارة المخي تؤثر في الوقت نفسه في مركز الآلم المجاور لآخيه الحراري أى إن بركتها تحل على الدائرة ومن فيها : ولكن حتى هذه المجموعة البريئة في ظاهرها لا تخلو من أشواك قد تحز ، أو قد تنال من الجسم مقتلاً . . . فالأسبرين مثلاً — هو اللعبة المفضلة في صيدلية المنزل — قد يسبب آلاماً معدية يصحبها عسر هضمي ، وقد يؤدي تعاطيه إلى حدوث طفح جلدي وهرش شديدين وتورم في الوجه والعينين ونزف من الأنف والفم ولذا جرت العادة الآن على إعطاء الفيتامين ج — وهو الفيتامين المضاد للنزف — في نفس الوقت إذا اضطر الطبيب إلى إعطائه لمرضى بكميات كبيرة كما هي الحال في الحمى الروماتزمية مثلاً . ومن سبيل وضع الحق في نصابه يجب أن تذكر أنه ليس للأسبرين وبقية أفراد أسرة السلسلات أى تأثير سيء في القلب كما تروى للشائعات . فإذا تركنا فصيلة الأسبرين وطرقنا باب

محطة الاستقبال ، فيجربى كل شيء في غفلة من مركز القيادة العليا الذي يعتمد في تصريف أموره على حارس يود لو كانت أميناً ، ولكن من طبيعته أن تلهيه عن مهمته الأصلية المداعبات والمشغلات ولا يثيق من غفلته إلا بعد فوات الأوان . بقيت لدينا المحطتان الرئيسيتان ، وإحداهما كما أسلفنا تقع عند قاع المخ ، والثانية عند سطحه . أما الأولى فإن تأثيرها بأدوية خاصة يؤدي إلى زوال الآلم دون أن يغيب الشخص عن صوابه أو يفقد توازنه ، كما هي الحال عند تعاطي الأسبرين والبيراميدون والفيناستين والفينوباريتال (اللومينال) . ومعظم المستحضرات المسكنة المنتشرة في السوق الطبي تجمع بين اللومينال وأحد أفراد المجموعة سالفة الذكر . أما المنومات التي تشل من حركة المركز الأعلى فن أهمها المورفين ، وأملح البرومور والكورال والبارالدهيد ، فيصحب زوال الآلم استرسال في نوم عميق ينسى خلاله المريض ألمه ولو إلى حين .

ومهما قيل عن أخطار المنومات والمسكنات فانه لا بد أن يأتي اليوم الذي يحتاج أحدنا إلى واحد منها ليقاوم أرقاً مستعصياً سببته أحداث العالم الصاخب ، أو ليريح نفسه من ألم ممض هو من الأحداث اليومية العادية في حياة الآلة البشرية .

وإذا كان لا بد من الشر فلتتحايل عليه لنتمس منه الذي ينفع ، وتجنب في الوقت نفسه ويلاته ومضايقاته . فيجب أن يكون الدواء للمنوم مثلاً رءوفاً بالمعدة لا يهيج غشائها المخاطي وأن يكون سهل الامتصاص من الأمعاء سريع الافراز في البول حتى لا يتراكم في الجسم بعد أن يؤدي مهمته ، ولأنه وجد بالتجربة أن هذا التراكم يؤدي إلى نوع من التسمم للزمن ، من أهم أعراضه التبلد الذهني والحدود

شهرية العلم

قد ينتهى بالوفاة . وتحدث هذه الأعراض — لحسن الحظ — فى قلة من الناس فى أجسامهم حساسية خاصة لهذا الدواء . ويمكننا أن نجنبهم شره بتحليل دم كل مريض يتعاطاه بصفة دائمة ، من آن لآخر ، ووقف تعاطيه فى الحال إذا وجدنا أن عدد السكريات البيض أخذ فى الهبوط .

وعند ما أسرد لك فيما يلى قائمة أسماء الادوية التى تحوى مادة البراميدون بين عناصرها ، لا أقصد مطلقاً الخط من قدرها فمعظمها أسماء عزيزة كم خففت من آلام وأوجاع وأدت للانسانية خدمات جلى تسجل بماء الذهب . ولكن كل ما أريده إنذار ودى من صديق يود لو كان نافعاً وأميناً ، لولا حساسية خاصة فى البعض منا تجعل من الدواء داء ، ومن النعيم بلاء .

أسرة البراميدون لنكشف عما فيها من محاسن ومساوئ لرأيتنا عجباً ؛ فانتا نجد اسم أحد أعضائها ضمن معظم المركبات المسكنة التى فى متناول الجميع يشترونها من الصيدلى المتخصص ومن البديل الذى يبيعها بجانب طابع البريد وعلبة السجائر . ولا بدلى فى هذا الصدد أن أرسل لك كلفة إنذار خاصة . فإذا رأيت اسم البراميدون Pyramidon مدرجاً فى تركيب دواء ماخذ حذرك منه ؛ لأن لهذا الصديق الملعون قدرة خاصة فى بعض الأشخاص — لا كلهم بطبيعة الحال — على النزول بكرىات الدم البيضاء إلى الحضيض ، قهوى من مستواها العالى البالغ عشرة آلاف فى المليمتر المكعب إلى ألف أو أقل ، فتقل مقاومة المريض للجراثيم ويصاب بالتهابات شديدة بالفم والزور ويتنابه هبوط شديد

نوع الدواء	مقدار الجرعة الواحدة	التركيب الكيميائى
الفيرامون Veramon	قرص إلى قرصين	براميدون ، فينوباريتال
سيبالجين Cibalgin	قرص إلى أربعة	براميدون ، فينوباريتال
أللونا Allonal	قرص إلى قرصين	براميدون ، فينوباريتال
جاردان Gardan	قرص إلى قرصين	براميدون ، نوفالجين
نوفالجين Novalgin	قرص إلى قرصين	لا تحويان مادة البراميدون ولكن
فيجانين Veganin	قرص إلى قرصين	فيهما مادة الفيناستين وهى أسلم نوحاً ولو أن لها أيضاً متاعبها ومضايقاتها .

Bromides وهى من أوسع المسكنات انتشاراً وتستعمل بصفة خاصة فى علاج الأرق والتهيج العصبى والصرع . وتتميز أملاح البرومور بطول مدة مفعولها ؛ لأن إفرازها من الكليتين بطيء فتبقى فى الجسم مدة أطول . ولهذا كانت فاعلتها فى علاج الصرع كبيرة لأن بقاءها بالجسم مدة طويلة يضمن السيطرة على الأعصاب المتوترة حتى يحين موعد الجرعة التالية .

فكل ما أرمى إليه من عرض هذه الأسماء الغالية على كل نفس هو مجرد لفت النظر إلى عدم الإفراط دون تبصر أو روية فى تعاطيها ، وألا ننشئ بيننا وبينها صداقات كبيرة ؛ فليس أعصف بالود من ملازمة مستمرة تكشف الغطاء عما خفى وبطن .

أنتقل من ذلك إلى أملاح البرومور

طفح جلدى يشبه طفح الجبضة مصحوب بارتفاع فى الحرارة ، ولا يلبث كل هذا أن يزول إذا وقفنا قاطى الدواء . أما فى الحالات الشديدة المصحوبة بغيبوبة فيجب حقن المريض بالاستركتين ، وفيد أيضاً من استنشاق الأوكسجين ، وخاصة الخلووط بشان أكسيد الكربون بنسبة سبعة فى المائة .

والفينوباربتال مستحضرات عدة وتتوقف كفايتها وسلامة مفعولها على قدرة الجسم على تحطيمها والتخلص منها ، فلا يبقى منها فى الجسم بعد مضي ٢٤ ساعة من تناولها سوى القليل ، ولا يؤدى تكرار استعمالها أياماً متوالية إلى تراكمها بجسمه الأمر الذى يؤدى عادة إلى أعراض تسمم مزمن . الفينوباربتون مثلاً لا يطرد من الجسم بسهولة ، بينما النجيبتال والأميتال ، وهما من مشتقات الباربتال أيضاً ، أسلم عاقبة لأنها يحطمان وتفرزات من الجسم بسهولة . وكلما كان الإفراز بطيئاً شعر الإنسان بمخمول جسمي وذهنى فى اليوم الذى يعقب تناول للنوم .

وعلى العموم يحسن عدم اللجوء إلى تعاطي أحد أفراد هذه المجموعة بانتظام ولأنه ليس هناك مانع من تعاطيها من آن لآخر عند ما تكون الحاجة ملحة . وعلينا دائماً أن نقاوم هذا القرص السحري الصغير الذى يفريننا صغر حجمه على التهامه حتى دون جرعة ماء .

وهناك دواءان منومان شائمان منذ زمن طويل ، وهما البارالدهيد والكلورال وهما يمتازان بسرعة مفعولهما وسرعة طردهما من الجسم حتى ليصحو الشخص فى اليوم التالى من نومه منتشاً هادئاً وكأنه نام نوماً طبيعياً . ولكن ظهور المستحضرات سالفة الذكر طفى عليهما كما طفت السيارة والقطار على ذوات الأربع كالحصان والحمار .

ولعل فائدة البرومور كملاج للصرع هى ألم صفحة فى تاريخه الطبي . فهو غير كفء كنوم ، ولا يزيل الألم فى الحالات الحادة . وإذا أعطى بمقادير صغيرة ، حدثت حدة الذهن واليقظ والتنبه التى يمتاز بها الشخص العادى . فيبدو خاملاً خامداً ، لا يقوى على التركيز والتفكير . وإذا أعطى بمقادير كافية جلب النوم فإن المريض يصحو منه كسلان على غير ما نعهده فيه بعد الاستيقاظ من يوم طويل .

وإذا أعطى البرومور مدداً طويلة فإن تراكمه بالجسم يسبب أعراضاً خاصة ، من أهمها بلادة التفكير وضعف الذاكرة ، وظهور طفح جلدى يظهر على شكل ققاعات أو بشور دملية أو بقع حمراء ، وفى الحالات الشديدة قد لا يقوى المريض على السير بثبات ، ويتهته ويتلعثم إذا حاول التعبير عن أفكاره . ويمكن شفاء هذه الحالات بوقف تعاطي الدواء وتناول المريض كميات كبيرة من ملح الطعام أى كلورور الصوديوم ، فإن هذا يساعد على سرعة إفرازه بواسطة الكليتين .

وقد شاع فى السنين الأخيرة استعمال مستحضرات الفينوباربتال Phenobarbital ومن أسمائه المعروف بها اللومينال Luminal حتى ليقال إن معامل الولايات المتحدة وحدها أخرجت ما زنته مائة طن استهلك منها داخل أمريكا نفسها ثمانون طناً ، وأصبح الناس يستعملونها فى بساطة كأنها أقراص الحلوى ، ولجأ إليها الكثيرون كوسيلة للانتحار ، وأدى سوء استعمالها إلى ظهور أعراض تسمم شديدة تصحبها غيبوبة قد لا يفيق المريض منها نتيجة شلل مركز التنفس المحي ، أو التهاب رئوى حاد تنتجه الغيبوبة الشديدة وتراكم الإفرازات المخاطية فى قاع الرئتين ثم غزوها بالجراثيم . ولكن قد لا تعدو أعراض التسمم حدوث

لكي يقضي المريض أيامه الأخيرة على أهنأ حال .
هذه قصة تلك الطاقة الفريدة التي قد ترى
العين غير المجربة بين أفرادها الفل والياسمين
على حين ترى فيها العين الناقدة الخطر الدفين .
فاحذروا لين ملمسها ، لأن الحذاع من طبعها
والنذر من طبعها .

مصطفى المرواني

أما المورفين فيجب تجنب استعماله كنوم
في حالات الأرق المزمن؛ فقد يولد في الشخص
عادة مزمنة متى وقع في محالها قتل عليه
السلام . ولكننا نلجأ إليه كسكن من
الدرجة الأولى في الأزمات القلبية والكلى
والكبدة وفي الأمراض المزمنة المشوش منها